

التَّاسُّهُ النَّصِيُّ  
فِي خُطْبِ السَّيِّدَةِ الزَّهْرَاءِ  
وَابْنَتِهَا زَيْنَبَ عَلَيْهِمَا

**Coherence in the Sermons  
of Sayadat. Al-Zahrah  
and Her Daughter Zeinab**  
Peace be upon them

أَنْسِيَّةُ خَزَعَالِي  
جامعة الزهراء عليها السلام  
طهران

**Prof. Dr. Anisa Khazaali**  
Al-Zahraa University  
Tahran

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research



## ملخص البحث

شهد التاريخ في لحظات خطيرة من حياته، حضوراً مؤثراً لنساء أهل بيت النبي ﷺ وسجّل لهن خطباً بليغة خلّدت مظلوميّة أهل البيت (عليهم السلام) في زمن حاول أعداء الدين تغيير مسيرة الإسلام حتى كادوا يمحون سنن النبي ﷺ، وآثار أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام).

وقد خدمت تلك الخطب الأدب العربي وأثرته إثراءً منقطع النظير. وكانت خطب السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وابنتها زينب (عليها السلام) من أروع ما سُمع من بلاغات النساء وتدلّ على عبقرية مثالية فيها بحيث لا يوجد مثلها في الآثار النسوية من جهتي الشكل والمضمون.

والدراسة هذه تعالج خطب ابنة النبي ﷺ وابنتها (عليها السلام) في مواقف صعبة وقاسية وتلقي الضوء على جوانب محدودة من بلاغة النصوص المتدفقة على لسانيهما في تلك الظروف مركزة على ملامح التماسك كالترداد والتضاد والإيقاع الصوتي للألفاظ المتخبة، ومشيرة الى التشابه العميق في كلامهما ومنبّهة على التفاوت في اختلاف الظروف المحيطة بمنشئتي النصّ.

## ABSTRACT

The history experiences an impressive presence for the women of Ahalalbayt (peace be upon them) and keeps their eloquent sermons immortal, in time the opponent of the religion endeavours to derail the line of Islam from its course to obliterate the traditions of the prophet (peace be upon him) and the heritage that serve the Arab literature. For the sermons of such ladies heave into view as the most eloquent ones unequal to other feminine efforts neither in form nor in content.

The present study tackles sermons of the daughter of the prophet (peace be upon her) in the hardest and most difficult stances and throws light on certain corners of the texts eloquence flowing from their tongues under these circumstances. In part, the study takes hold of coherence; repetition, synonym, contradiction, rhythm and the chosen expressions, refers to the deep line of mutuality between their acts of speech and cautions against the variety of the circumstances the creators endure.

... المقدمة ...

لقد منّ الله على الناس إذ بعث فيهم رسولاً منهم، وأمره بتعليمهم وتزكيتهم من طريق تبليغ الرسالة والسنة النبوية والإجراءات التطبيقية؛ وبذلك شقّ البيان المحمّدي الطريق وبدأ بالنفوذ في العقول والأفكار من طريق البيان وأثرت النصوص النبوية التي رويت عن النبي محمد ﷺ في النفوس والعقول لأنها من كلمات الوحي وخطاب رب العالمين ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم ٣٤] وأصبح كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، وأبلغ ما أمره ربه بأسلوب جميل يرتاح المخاطب لاستماعه فدخل في قلوب المسلمين وأثر في نفوسهم خير تأثير. «وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة، تعنولهم أزمة القول، وتنقاد أئمة الكلام، ويهتفون بروائع الخيال، فينصاع لهم عصيّه، ويدلّ لهم أيّه وينقاد شامسه. وإذا كان الكلام صناعتهم التي بها يباهون ويتشدّقون؛ فلا بد من أن يكون الرسول ﷺ الذي يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة، ومذاهبهم الزائفة... لا بدّ من أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أبلغ من منطقهم... ومن هنا كان بيانه ﷺ السحر الحلال والنبع الدافق والمشرع العذب الذي يتفجّر من طبع مهذب معقول، وفطرة عريقة أصيلة تساندت في صقلها أقوى العوامل، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات إذ نشأ وتقلّب في أفصح القبائل وأصحّها لهجة وأخلصها منطقاً وأعدّها بيانا وأرهفها جناناً وأقومها سليقة». (هيفاء، ١٤٣١، ١٥٠/٥)

واستمرت الرسالة بعد النبي ﷺ باتّباع أهل البيت ﷺ خطاه وسلوكهم مسلكه ونهجهم منهجه، وقرنهم النبي ﷺ بالقرآن العظيم، وأخبر الناس في حديث الثقلين

بعدم افتراقهم عن القرآن الى يوم القيامة وقد شهد التاريخ بأثرهم في حفظ الرسالة وإحياء سنة النبي ﷺ خاصة في مواقف حرجة وظروف تحتاج الأمة فيها الى كلام ينبئها من غفوتها ويبيِّن لها الحقائق ويحثُّ مشاعرهم ويحرض همهم.

ويقول شبراوي في كتابه الإتحاف بحب الأشراف «وإن آل البيت حازوا الفضائل كلها علماً وحلماً وفصاحة وذكاء وبدية وجوداً وشجاعة، فعلمهم لا تتوقف على تكرار درس ولا يزيد يومهم فيها على ما كان بالأمس، بل هي مواهب من مولاها، من أنكرها وأراد سترها كان كمن أراد ستروجه الشمس». (١٤٢٨ق، ٩،)

وقد تمثلت الفصاحة والبلاغة النبوية في آل بيته (عليهم السلام) الذكور منهم والإناث وتجلت هذه البلاغة في ابنته الكريمة فاطمة الزهراء (عليها السلام) التي كانت بضعة منه، وكان يرضى لرضاها ويسخط لسخطها وكان يُعزى رضاها الى رضا رب العالمين، وتجلت في إجابات وخطابات حفيدته زينب بنت علي بن أبي طالب (عليها السلام) في مواقف مؤلمة وخطيرة جداً.

### المؤثرات الخارجية في بنية النصّ في خطبها

الروايات تدلّ على المواقف الحرجة التي شاهدها بنات النبيّ بعد وفاة الرسول ﷺ وإن كانت الفاصلة الزمنية بعيدة إلى حد ما بينهما؛ ولكنها متشابهة وقريبة من حيث الوقائع والحوادث التي جرت عليهما والتي تدل على مظلومية سيدات أهل البيت (عليهم السلام)، وتحملهنّ الصعوبة والمشقة في سبيل إثبات الحق والدفاع عن حقوق آل بيت النبي ﷺ والاستئنان بسنته التي كادت تُترك على مرّ الزمن بل كادت تتغير وتعرف على غير ما سنّها النبي في حياته.

فاطمة الزهراء عليها السلام في الظروف الصعبة

بعد النبي صلى الله عليه وآله لحقت فاطمة عليها السلام بأبيها صلى الله عليه وآله في زمن قريب جداً وصُبت عليها في تلك المدة القصيرة مصائب تعبر عنها: ((لو أنّها صُبت على الأيام صرّ ليالياً))، بعضها كانت بسبب وفاة أبيها النبي محمد صلى الله عليه وآله وبعضها الآخر يرجع إلى ظلم الأمة وعدم وفائها لقائدها حين سعى عدد من المسلمين إلى غضب حقوق الإمام علي عليه السلام أخي النبي صلى الله عليه وآله ووصيّه في خلافته التي أوصى بها يوم الغدير وفي آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة كثيرة نصّت على ولايته، وبعضها يرجع إلى تصرّفات ظالمة من جانب الحكومة في حقها في فذك. كل هذه الظروف كانت تملأ قلبها حزناً وأسفاً بحيث تخاطب النبي في خطبتها المشهورة قائلةً:

قد كان بعدك أنباءً وهنئة لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب  
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب  
(أبي طاهر طيفور، ١٣٧٨ ش، ١٠)

سببت هذه الأحداث إثارة الغضب وإعلان بنت النبي صلى الله عليه وآله براءتها منهم وأبدت ذلك في قولها وفعلها بوجه من ظلمها. ويشرح شرف الدين هذا المشهد المشحون بالحزن والأسى. «ثم غضبت على إثارة واستقلت غضباً فلائت خمارها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تحرم مشية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة ثم أتت أخته أجهدش لها القوم بالبكاء وارتجّ المجلس فأمهلتهم حتى إذا سكن نشيجهم، وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله عز وجل ثم انحدرت في خطبتها تعظ القوم في أتم الخطاب، حكّت المصطفى به وحكاها فخشعت الأبصار وبخعت النفوس ولولا السياسة ضاربة يومئذ بجرائها

لردت شوارد الأهواء، وقادت مرود الشهوات، ولكنها السياسة توغل في غاياتها لاتلوي على شيء ومن وقف على خطبتها عرف روايتها لمن بعده». (١٣٧٨ ش، ٦٩) بلغت الخطبة أسمى درجات الأدب والفصاحة وذهب بعض الباحثين الى أنها أضخم رصيد لفهم شخصيتها على الصعيد الواقع وهناك من وصفها بالخطبة الثوريّة التي سعت إلى زعزعة النظام السياسي الجديد. (شهيدى، ١٣٦٣ ش، ١٢٤) وكذلك خلّدت الحقائق عبر التاريخ بخطبتها وبوصيتها الواعية التي تدل على استشرافها المستقبل وتنبئ عن الذكاء والبصيرة الكامنين في بنت الرسول ﷺ.

#### زينب (ع) والبيئة المدهشة بعد مقتل الحسين (ع)

عاشت زينب (ع) ظروفًا كئيبة مدهشة بعد استشهاد الحسين (ع) وأهل بيته وكان كل شيء ثقیلاً عليها ومؤملاً لها وثقیلاً على أهل بيت النبي (ص) فقد ساقوهن أسارى إلى عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية اللذين سعيا إلى طمس معالم الدين وإيذاء بيت النبوة ومحو كل أثر من آثار النبوة. انّ ما حدث بعد عاشوراء كان حركة عظيمة بحيث انقلبت الأمور على عكس ما كان يريده الحكام في الشام والكوفة. «لقد كان من أروع ما خطّطه الحسين (ع) في ثورته الكبرى حمله عقيلة بني هاشم وسائر مخدرات الرسالة معه الى العراق فقد كان على علم بما يجري عليهن من النكبات والخطوب، وما يقمن به من دور مشرف في إكمال نهضته وإيضاح تضحيته وإشاعة مبادئه وأهدافه، وقد قامت حرائر النبوة بإيقاظ المجتمع من سباته، واسقطن هيبة الحكم الأموي، وفتحن باب الثورة عليه، فقد ألقين من الخطب الحماسية ما زعزع كيان الدولة الأموية». (شريف القرشي، ١٤٢٣، ٢٠٨)

تقول عائشة بنت الشاطي في وصف هذه العظيمة: «افسدت زينب أخت الحسين على ابن زياد وبني أمية لذة النصر وسكبت قطرات من السمّ الزعاف في



## تجلي العبقرية الأدبية في إجابات بنات النبي ﷺ وخطابهن

وكانت المواقف والظروف الخاصة المشار إليها تتطلب نوعاً خاصاً من البداهة والارتجال في مواجهة الحوادث لخلق نصوص مؤثرة وفاعلة في مشاعر المخاطبين لتصحيح الأوهام التي أشاعها أعداء آل محمد في الأوساط الإسلامية، فكانت النصوص المنتجة بليغة متماسكة، لذا زاد الربط بينها من إبداعات الكلام في بيت النبوة وهذه ظاهرة مشهودة في نصوصهم، فهي أكثر تأثيراً وأبلغ إجابة في اللقاءات والحوارات التي جرت بين بنات النبوة وبين من غصب حقوق آل البيت ﷺ بل هي في بعض الأحيان تكون أحسن بناءً وأعمق معنى وأروع فصاحة من الخطب التي يلقيها البلغاء أمام الناس من العامة والخاصة.

## جوانب من التأسك في نصوص السيدة فاطمة الزهراء (ع) ومؤثراته

### ١) فاطمة الزهراء (ع) في مواجهة نساء المهاجرين والأنصار

حين تشتد العلة على بنت النبي ﷺ وتأتي النساء لعيادة فاطمة الزهراء (ع) كما ينقل التاريخ لم يكن عددهن قليلاً بل كان العدد لا يستهان به، انتهزت فاطمة الزهراء (ع) الفرصة لتكتب في التاريخ وتوصل إلى عقر دار المهاجرين والأنصار شدة تبرئها من أعمالهم وخصومتهم لآل بيت النبي ﷺ حين سألتها النساء عن مرضها: كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله؟ فإنها بدل أن تجيب عما تشعر به من الألم والمرض تبحث عن السبب والألم الحقيقي الذي يؤلم قلبها وروحها فتقول: ((أصبحت والله عاتفة لديناكن قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم وسئمتهم بعد أن سبرتهم فقبحا لفلول الحد واللعب بعد الحد)). (طبرسي، ١٣٨٨، ١/ ١٣١)

ثم ترمي إلى ما هو الأساس في الشكوى هذه وتخطبهن بالعتاب على ما فعلوا بعلي بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتضع النقاط على الحروف وتكشف المستور لمن يدعي ذلك: ((وما الذي نقموا من أبي الحسن، نقموا منه والله نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل والله لو تكافوا عن زمام نبذه رسول الله صلى الله عليه وآله إليه لاعتلقه ولسار بهم سيراً سجحاً)). فهي تبدي كراهيتها للعالمين أولاً وشكواها من مجتمع خالف القيم والأصول الإسلامية والإنسانية ثانياً وتكشف الستار عن اشمئزازها من رجالهن بسبب سوء تصرفاتهم ثالثاً وتحتج عليهم مستندة إلى الخلفيات التي اعترفوا بها في علي عليه السلام وتستعمل واحدة من الأدوات لتقوية التماسك في النص باستعمال ما يقرب المعنى في النص إلى ذهن المخاطب باستعمال أسلوب التشبيه الجميل الذي يقرب المعنى بشكل واضح إلى أذهان الذين يريدون أن يغمضوا أعينهم على ما حدث بعد النبي صلى الله عليه وآله حيث تقول: ((استبدلوا والله الذنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)). (طبرسي، ١٣٧١) شبهت الأمة بالطائر الذي لا يمكنه الطيران لأنه اختار الذنابي بدل القوادم التي هي المحركة القوية في جناح الطائر والذنابي لا تستطيع حمل جسد الطائر واقلاعه من الأرض.

## ٢) زينب عليها السلام في مواجهة العدو

وتابعتها ابتتها زينب عليها السلام في تلك الظروف القاسية بعد شهادة الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته نراها صامدة مطمئنة تقف أمام الكلمات المؤذية والتصرفات السيئة من جانب العدو فكأنها هي المنتصرة حين تجيب ابن زياد في كلامه اللامز: كيف رأيت صنع الله بأخيك؟ فأجابته بكلمات الظفر والنصر باستعمال أداة من أدوات التماسك هي اسم الإشارة (هؤلاء) وأدوات الربط من حروف العطف



وما كل ذلك إلا بسبب معجزة كلام السيدة زينب عليها السلام التي جمعت في إجاباتها بين بلاغة الكلام والموقف وفصاحة الكلمة والكلام؛ الكلام الذي يدوي في الآذان كدوي كلام أمها وأبيها عليهما السلام كما نُقل عن حذلم بن كثير (وكان من فصحاء العرب) بأنه أخذته العجب من فصاحة زينب وبلاغتها، وأخذته الدهشة من براعتها وشجاعتها الأدبية حتى أنه لم يتمكن أن يشبَّهها إلا بأبيها سيد البلغاء والفصحاء. فقال: «كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين». (المصدر نفسه، ٦٨)

### من ملامح الانسجام الداخلي والتماسك في الخطبتين

هذه الدراسة تلقي الضوء على خطبتين من خطب بنات النبي صلى الله عليه وآله الخطبة الفدكية للزهراء المرضية عليها السلام والخطبة المشهورة لزينب بنت علي عليها السلام في قصر يزيد مشيرة إلى نقاط مشتركة فيها فنيًا ومبينة المحاور المطروحة في كلتا الخطبتين مركزة على الانسجام الداخلي في النص المأثور حول المحور الأصلي والتماسك الموجود بين أجزاء الكلام بالنظر إلى المتلقي والظروف المحيطة به.

بدأت الخطبتان بالحمد والشكر الإلهي وجاءت لغتها مرسلة ميسورة والعبارات موجزة وبعيدة عن التزويق اللفظي المتكلف فاستعملت فيهما العبارات الغامضة في مواضع استعارية أو التمثيلات التي احتيجت بغية التأمل والتعمق ذلك أنّ الخطيب يحدّر في مثل تلك الظروف المحيطة من الصراحة والمباشرة، وفي ذلك نكتة بلاغية هي إيجاد التأثير النفساني في المخاطب وإثارة مشاعره ليتفاعل مع النص ويتجلى ذلك في مجالات التصوير الفني وأثره في المخاطب بحيث عدّها البلاغيون أبلغ من التصريح وأوقع في النفس من الأداء المباشر.

## ١) الإنسجام والتماسك النصي

مع أن مصطلح التماسك والانسجام والاتساق من المفاهيم الجديدة في النقد الأدبي الحديث إلا أن عناصره كانت مستعملة في البلاغة العربيّة وكانت تعرف في قوالب مختلفة وتحت نظريات متضاربة منذ سيبويه حتى عبد القاهر الجرجاني والنقاد المعاصرين في النقد الحديث، إلا أن هذا المصطلح يستند إلى علم اللغة ويتسبب إلى المدارس اللغوية الحديثة التي ظهرت على يد العالم السويسري دي سوسير ومن أشهر علماء اللغة الذين يقودون هذه الحركة الدراسية هو هاليدي ومن أبرز القضايا التي طرحها هي الاتساق النصي.

ويعني الاتساق الكيفية التي يحدث بها التماسك النصي بترابط عناصره، وهو مفهوم دلالي يميل إلى العلاقات المعنوية القائمة في داخل النص، وهي عناصر تحدده وتمنحه صفة النصانية، ويشمل مفهوم الاتساق هذا عددا من المنسقات كالأحوال إلى الضمائر، والإشارة والحذف والاستبدال والوصل والاتساق المعجمي (خطابي، ١٩٩١، ٢٨٨). على أننا لم نحدّد دراستنا بالمعايير المذكورة في كل من هذه التقسيمات فحسب بل بحثنا عن أيّ شيء ينتج منه التماسك في اللغة والمفردة في ذاتها أو في المجاورة والتركيب.

## الإنسجام في المفردات

إنّ الانسجام المفرداتي يأتي في أشكال مختلفة من التكرار والترادف والإشارات إلى التضاد والتضام كما ننبّه على أنّ لاستعمال أسماء الإشارة والموصول والظروف والتأكيدات مكانة خاصة في التماسك النصي نبحث عن بعض منها ونتطرق إلى ما يتجلّى بوضوح في كلام سيدتين من أهل بيت الوحي (عليهما السلام).

أ: التكرار والترادف

التكرار إمّا أن يكون بشكل مباشر أو غير مباشر أو باستعمال الكلمات المترادفة وهذا الثاني متوافر في الخطبتين إذ تستعمل الخطيبتان المرادف والمعاني التي تقرب المفاهيم إلى ذهن المخاطب. ((يا أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول عوداً وبدءً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً)). تخاطب الناس وتؤكد صحة قولها وفعلها بترادف المترادفين لأنها تراهم مشككين في كلامها كما تعرّف بنفسها وبأبيها بعد ما كانت عرّفت بهما في أول كلامها قاصدةً أن تفهمهم بما يفرون من إدراكه. ثم تأتي بصفات أبيها ذاكراً أفعاله الرسالية بالمرادفات المثبتة لها: ((ببلغ الرسالة صادعاً بالندارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً بئبجهم؛ أخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر)). في العبارات المذكورة تذكر خصائص النبي ﷺ الرسالية خمس مرات في سياق اسم الفاعل ومرتين في صيغة المضارع والكل يدل على نضاله ضدّ المشركين وشدة وطأته ﷺ عليهم. وهذا الأسلوب نفسه مستعمل عندها حين تصف علياً عليه السلام مكلفاً من جانب النبي ﷺ لمناضلة الشرك والنفاق.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أونجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفي حتى يطأ صهاخها بأخصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله ﷺ، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم.

فاستعملت ﷺ للفتنة والحرب أفعالاً مترادفة كأوقدوا، ونجم، وفغرت وكلّها تعني الحادثة العظيمة إذا جاورت معموليها ثم تبين إثثار علي عليه السلام وشجاعته بأسماء مترادفة وخصائص مكررة تظهر مكانته عند الرسول ﷺ وفي المجتمع المدين له

بفضل الهداية، والخلاص من أدران الجاهليّة الذي نسي حقّ رسول الله ﷺ في مودّة القربى، وشكره على آلائه في بناء مجتمع إسلامي تسوده العدالة والمساواة، مذكرة إيّاهم بالصفات العشر التي تستعمل السيدة فاطمة (ع) ثلاثاً منها في صيغ الفعل والأخرى بصيغ أسماء تدلّ على ثبوتها واستمرارها فيه.

وتخاطب ابنتها زينب (ع) يزيد وتصفه بصفات تكشف الستار عن وجهه الكالح بألفاظ مترادفة ومكررة بعضها أسماء وبعضها الآخر أفعال تدلّ على شدة قبح يزيد ذاتاً وفعلاً حين تستهزىء بجبروت الملك وانتصاره الوهمي وتجتثّ جذور ما بُنيت عليه أفكاره وترى الكرامة والعزة غير ما يرى، والذلة والهوان غير ما يتصور وتحتاج لهدم هذا الأساس المادي المشرف على النار الى استعمال كلمات متماسكة تصدع كبريائه وترسم شدة تفرغته: ((أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيّقت علينا آفاق السماء فأصبحنا لك في أسار، نُساق إليك سوقاً في قطار، وأنت علينا ذواقدار، أنّ بنا على الله هواناً وعليك منه كرامة وامتناناً، وأنّ ذلك لعظم خطرك وجلالة قدرك، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك، تضرب أصدريك فرحاً وتنقض مذبورك مرحاً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمورّ لديك متّسقة وحين صفا لك ملكنا وخلص لك سلطاننا، فمهلاً مهلاً لا تطش جهلاً)).

فتشير إلى دناءة تصرفات يزيد مع أهل البيت بتعابير مترادفة كأخذ الأرض وضيّق السماء كما توظف عقيلة بني هاشم (ع) عشر خصائص تدل على طغيانه: اثنان منها بصورة اسميّة والبقية فعلية إشارة الى أفعاله القبيحة وأعماله السيئة في حين تكتبي عن الظروف الثلاثة الأخرى وهي اتساق الأمور وصفوة الملك فيها بكنيات عن عدم ملكيته لها واختصاصها بأهل البيت (ع) في إضافتها الى ضمير المتكلم وبهذا الإنساب تصوّر نفسها حاكماً يحكم ويزيد أمامها أسيراً، فأهل البيت (ع) هم القادة الحقيقيون لهذه الأمة وهم الأولى بالسلطة والحكم. (الصفار، ١٤١٤ هـ، ٢٤٠)

كما تُوقف يزيد عن الطغيان والعصيان أمرة إِيَّاه، ومكرّرة هذا الأسلوب التهكّمي، والكلمات التي تحمل الثقل والحِدّة والقطع كاسم الفعل، فمهلاً مهلاً. وتعلن العجب والهزء في تكرار الكلمات المهذّدة: ((فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء وأسباط الأنبياء)). أو الإخبار بعاقبته السيئة بألفاظ مكررة ذات دلالات متقاربة: ((وَلَتَوَدَّ أَنَّكَ سُلِّمْتَ وَعَمِيَّتْ وَبَكِمْتَ وَلَمْ تَكُنْ قَلْتَ مَا قَلْتَ وَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ)). ويوجد كثير من هذه المرادفات في خطاب زينب عليها السلام خاصة في وصفها أعمال يزيد وتصرفاته وتصرفات أصحابه. التكرار هذا يتجلّى في استعمال الأفعال أو الأدوات والأسماء بحسب التأكيد والتركيّز على محور خاص في خطابات زينب عليها السلام في إطار أبنية الخطاب وأبنية الأفعال المخاطبة أو ضمائر الخطاب كما تستعمل حرف النداء وضمائر الخطاب بكثرة لأنّها كانت تريد الحطّ من شأن يزيد وكسر شخصيته الكاذبة فتقول: ((أظننت يا يزيد... أمّن العدل يا بن الطلقاء... أنسيّت قول الله عزّ وجلّ... حسبك الله ولياً وحاكماً)). وإن هذه النسبة في الاستعمال المباشر والخطاب والنداء في كلام السيّدة فاطمة عليها السلام أقلّ منها في خطبة زينب عليها السلام لما في كلام السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام من تعريف بمنهج النبي صلى الله عليه وآله وأهدافه وذكر خصائص ابن عمه ووليّه عليه السلام والإشارة إلى الأحكام وذلك يتطلب تكرار ضمير الغائب أو الأفعال المسندة إلى الغائب.

### ب: التعارض والتضاد

معروف أنّ الأشياء تعرف بأضدادها والإفصاح عن كل أمر يحتاج إلى معرفة عدمه أو ضده وكيفية المعارضة له والظاهرة هذه تتجلّى في خطاب نساء أهل البيت (عليهن السلام) حيث صوّرن أمام أعين الناس الحق من الباطل والنور من الظلام. ها هي بنت النبي صلى الله عليه وآله تخاطب الأنصار الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله وتحملوا الكدّ

والتعب في ركابه: ((فأنت حرّتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان؟)). فهي تورد الألفاظ المتضادة والمعاني المتباينة وذلك بربط الفكرة بما يناقضها في سبك نصي متماusk يربط بعضه بنقيضه، في ثنائيات متضادة يشد بعضها أزر بعض، فيضمن وحدة متماسكة، ذاكرةً التعارض الموجود في نفوسهم الذي ساقهم إلى النفاق والعدول عن الحق بذكر الأفعال المتضادة في مدة قصيرة من الزمان وبعد وفاة النبي ﷺ وتعالج تشريح أحكام الشريعة والحكمة الكامنة فيها مبيّنة التضاد الحاصل من إجراء الأحكام التي تمحو الحالة السيئة الموجودة قبل تطبيقها في عرض لحكمة الله في أصول الدين وفروعه ببناء نصي متماusk: ((فجعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك والصلاة تنزيها لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق)). فتجعل الإيمان مقابل الشرك، والخشوع والخشوع في الصلاة مقابل الكبر، وإعطاء المال مخالفاً لشح النفس، وموجباً للتزكية والتنمية. أو تذكّرهم بمناقبهم ومساندتهم للإسلام في عهد النبي ﷺ مبيّنة نقيضها فيما فعلوا في ذريته وغضبوا حقوقهم والأنصار ساكتون وخامدون: يا معشر النقيبة وأعضاء الملّة وحضنة الاسلام، ماهذه الغميرة في حقي والسنة عن ظلامتي؟

فلا شك في أنّ تصوير هذه المفارقة المؤلمة يهزّ النفوس ويجعلهم في موضع انفعال ورجوع إلى النفس وتحريك ضمائرهم. وزينب (ع) تتمتع بقدرتها في هذا الفن لإثارة الغيرة في الحاضرين في مجلس يزيد حيث تقول: ((أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هُتكت ستورهن وأُبديت وجوههن)). فتجعل الأفعال المتناقضة ليزيد وأصحابه في أهلهم، وفي أهل بيت النبي ﷺ على مرأى الناس ومسمعهم حتى يحكموا عليها، فهم يحدّرون حرائرهم في بيوتهن، ويسبون بنات رسول الله ﷺ مهتوكات الستر، باديات الوجه، وتصف هذا التجوال بنساء أهل بيت النبي ﷺ في الشوارع مستعينة بالكلمات المتضادة التي

تدل على سوء فعلة يزيد وقبحها (( تحذوبهنّ الأعداء من بلد إلى بلد... ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والغائب والشهيد والشريف والوضع والديني والرفيع ليس معهن من رجالهن وليّ ولا من مُحامتهن حمي)). وفي موقف آخر تستفيد من طباق السلب وتأتي بالمتضاد في أسلوب النفي حيث تخبره بمكانته في يوم القيامة ((ولعمري لقد ناديتهم لو شهدوك، ووشيكاً تشهدهم ولن يشهدوك)).

وأخيراً تأخذ الطباق والجناس في لفظ واحد تلقي به في وجه يزيد بأن ما طلبت من الغنائم أصبح مغرماً عليك وصار الأمر على خلاف رغبتك بما قتلت الأتقياء وأسباط الأنبياء وفي العبارة أيضاً تقابل جميل بين الأنبياء والطلقاء: ((فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء وأسباط الأنبياء وسليل الأوصياء بأيدي الطلقاء... فلئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً)).

### ج: الإيقاع الصوتي للمفردات

من أجود ما يجذب القلوب هو حسن الأداء والجمال الفني المنتج من الإيقاعات الموسيقية في الخطابة ومع أنّ قسماً كبيراً من هذه الموسيقى الداخلية منها والخارجية يجب أن يبحث عنه في إطار العبارة والنص بكامله؛ ولكنه مدين إلى حد ما إلى الألفاظ المنتخبة من خزينة اللغوي من الأسماء والأفعال والصفات والمخارج المندجة في حروفها التي تعطيها السلاسة والجزالة والفصاحة. ورنينها يجذب أو ينفر السامع ويسهم في الربط والتماسك لما بين الفاصلة وما قبلها وما بعدها من علاقات معنوية مترابطة. بعض الحروف يحمل الفرح والسرور وبعضها الآخر مشحون بالحزن والأسى كما إن بعضها يدل على التفاؤل والخير وغيرها على التشاؤم واليأس. (عبدالله، ٢٠٠٨ م، ٢٣)

انتخاب الكلمات في آخر العبارات يُعدّ من المؤثرات في الإيقاع الموسيقي يعبر عنه النقاد العرب القدامى بالسجع أو يصطلحون عليه في القرآن الكريم بالفاصلة ويريدون به تجانس الحروف في آخر الآية ويربط مكونات الآية أو النصّ الشري معنوياً. وهذه الفواصل أو السجعات من الظواهر المشهودة في كلام فاطمة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بضعة الرسول (ﷺ) بحيث يلمسها المتلقي من بدء خطبتها الى الختام وبما أنّه تجانس عفو يخرج بغير تكلف أو تصنع ارتاحت له النفوس ولم تنفر منه الأذان. فتبدأ الصديقة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بحمد الله والثناء عليه بعبارات زينت أواخرها بهذه الكلمات النغمية المتسقة: ((الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما أهدى، والثناء بما قدّم من عموم نِعَم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولها، جمّ عن الإحصاء عدّها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها)). تتنخب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) كلمات متشابهة الأواخر، وقريبة المضامين، في حين تجد الحروف المختومة بها عباراتها تحمل بموسيقاها نداءً خاصاً للمخاطب؛ منها حرف الميم لخصوصيته التي تُجسّس فيه النفس يدلّ على أمر مكلف وشاقّ يستعمل في الفواصل الثلاث في ابتداء الخطبة ثم تنتقل الى حرف الألف بعد الهاء وكلا الحرفين يدلّ على الحزن والأسى، وكثير من المراثي تنشد مختومة بهذين الحرفين فضلاً عن التماسك الإشاري المشهود في إحالة الضمائر الى الله تعالى الذي بدأت الخطبة بحمده.

ويشارك الخيار الممتاز الرائع المشهود في جميع موضوعات الخطبة من البدء الى النهاية في تماسك بنية النصّ وتناسقه فهي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) إذا تكلمت عن وفاة أبيها (ﷺ) مع ما بها من الوجد والأسى والحزن لذلك المشهد لكنها ترسم خيوط خطبتها بكل هدوء واطمئنان و بانتخاب ألفاظ موحية: ((ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار فمحمّد (ﷺ) من تعب هذه الدار في راحة، قد حُفّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار)).

فنتخب حرف الرءاء في الكلمات المشهورة بالخير والبركة والرأفة وإرادة الله تعالى وبها أن في حرف الرءاء نوعاً من التكرير والاستمرار ترى حياة أبيها مستمرة باستمرار الإسلام وتُنبئ عن وجوده السار في الحياة الأخرية.

ونرى الموسيقى النغمية نفسها في كلام زينب عليها السلام المنبعث من انتخاب الكلمات والمفردات ذات الرنين بحيث يغيب ابن مرجانه ويقول: هذه سَجَّاعة لعمرى لقد كان أبوها سَجَّاعاً شاعراً. فتردّ عليه زينب عليها السلام: ((إن لي عن السجاعة لشغلاً)). فهي تُحسن الخطاب في تجويد الكلمات وتركيبها بحيث نرى عباراتها كالصاعقة على رأس يزيد بموسيقاها القارعة الشديدة: ((فلتردّ وشيكاً موردهم ولتودن أنك شللت وعميت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت)). إضافة الى التأكيدات الأداتية والاتصالية والاتصال بالفعل؛ وانتخاب الصيغ والتكرار المؤدّي الى التأكيد والحتمية فهي تشكل إيقاعاً ثقيلاً للتهويل والتأثير يسهم في ربط تواصل المخاطب بالمتكلّم وترسم صورة صاحبة بالموسيقى الممتزجة بها.

وفي موقف آخر تستفيد من أسلوب الحصر وطننته وقطعيته لتثبت ما تريده في أعماق النفوس. ((هل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد يوم ينادي المنادي ألا لعن الله الظالم العادي))، فقد وظفت حرف الدال ثماني مرات في عبارة قصيرة؛ وهو الحرف الذي اشتهر بالجهر والانفجار وفيه صلابة خاصة كما أن له صفة اختصاصية في القراءة كالقلقلة التي تدل على جمهوريّة الصوت والمبالغة في أدائه؛ ولا شك في أن تكرار هذا الحرف تأكيد للفناء والاضمحلال والتبدد وإذا وضعناها بجانب سائر المحاور المرتبطة في الخطبة نراها في غاية التماسك والانسجام اللغوي الذي يجعل النص مجموعة واحدة مترابطة حول محور أصلي وهو المقاومة والانتصار.

... الخاتمة ...

إنَّ العبقريةَ الأدبيةَ النبويةَ في إبلاغِ الرسالةِ وتأثيرها في الناسِ قد تجلَّت في مواقف حرجة من تاريخ الإسلام في أهل بيته وشهدتاريخ البلاغة والفصاحة المتدفقتين من لسان بنات النبي في الإجابات والخطابات الواصلة إلينا وبإنعام النظر في خطب الزهراء المرضية وزينب بنت علي (عليها السلام) نلمس التماسك والانسجام على مستوى المفردات والجمل وإذا ألقينا الضوء على التكرار والترادف ثم التضاد والنغم الموسيقي في الحروف والكلمات رأينا الخطبتين متشابهتين جدا من حيث التماسك والانسجام في انتخاب الكلمات المؤدية إلى التماسك والانسجام ويتضح ذلك في كيفية التكرار والتركيز على الأداء المؤثر وفي توظيف المترادف والمتضاد إلا إنَّ اختلاف الظروف سبَّب التركيز على ضمير دون آخر في خطبة الزهراء (عليها السلام) وعلى استعمال المؤثرات الصوتية الشديدة في خطبة زينب (عليها السلام) أكثر من خطبة أمها البليغة. كما أنَّ الترابط والتماسك المعنوي والصوتي في كليهما مشهود في محور واحد وهو المقاومة والصمود في الدفاع عن الحق وتبيينه.

## المصادر والمراجع

٩. شهيدى، سيد جعفر، ١٣٦٣هـ. ش، زندگانی فاطمة الزهراء عليها السلام، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، تهران.
١٠. الصفار، حسن، ١٤١٤هـ. ق، المرأة العظيمة، دار البيان العربي، ط١.
١١. طبرسي، أحمد بن علي، ١٣٨٣هـ، الاحتجاج، مكتبة الحيدرية، قم.
١٢. عباينه، يحيى وأمنة صالح الزعبي، ٢٠١٣م، عناصر الاتساق والانسجام النصي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٦، العدد ١ و٢.
١٣. عبدالله، محمد فريد، ٢٠٠٨م، الصوت اللغوي ودلالاته، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى.
١٤. النقدي، شيخ جعفر، ١٤١١هـ. ق، زينب الكبرى عليها السلام بنت أمير المؤمنين عليه السلام، مؤسسة الإمام الحسين عليه السلام، قم.
١٥. www.uqu.edu.sa هيفاء عثمان عباس الفدا، ١٤٣١هـ، البلاغة النبوية وأثرها في النفوس.
١. أبوطاهر طيفور، أبو الفضل أحمد، بلاغات النساء، مكتبة الحيدرية.
٢. بنت الشاطئ د. عائشة، (د.ت)، سيدات بيت النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣. جون كوهين، ١٩٨٩م، النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، دار غريب.
٤. خزعلي، إنسيه، ١٣٨٨هـ، آرايه هاى أدبى در كلام زينب عليها السلام، دفتر نشر فرهنگ إسلامي.
٥. خطايب، محمد، ١٩٩١، لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت.
٦. شبراوي، عبدالله بن محمد، ١٤٢٨ ق، الإتحاف بحب الأشراف، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الإسلامي.
٧. شرف الدين، عبدالحسين، ١٣٨٧هـ. ش، نص واجتهاد، تحقيق: أبي مجتبى، نشر الكتروني: مؤسسة تبيان، قم.
٨. شريف القرشي، باقر، ١٤٢٣هـ، السيدة زينب عليها السلام بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام، دار المحجة البيضاء، بيروت.

